13

نجاة شهبندر

قال سندباد :

لم أكن أعرف من لغة النسانيس حرفًا، ولم أكن أظن أنني أفهم منها حرفًا، ولكن الشيخ سمع وفهم وعرف ما يريد النسناس أن يقوله وأجابه إلى ما كان يطلبه؛ ثم أخذ الشيخ يحكي لي ما سمعه فقال هذا النسناس الوحيد الباقي على ظهر الأرض؛ وكان قد رمى نفسه في الماء مع بعض أصحابه حين رأوا النار تشتعل، فغرقوا جميعًا ونجا وحده !

قلت : وماذا ترى في شأنه؟

قال الشيخ : وماذا ترى أنت؟

قلت : أرى أن نتركه ونمضي!

قال : بل نأخذه معنا، فإنه لا خوف منه الآن وقد هلك أصحابه، ولعلنا نستطيع أن نحمله معنا إلى أرض أخرى، ليتفرج عليه الناس فنكسب من فرجتهم مالًا !

وكان النسناس يسمع ويفهم ونحن لا نظن ذلك، فلما سمع حديث الشيخ إليَّ صاح قائلًا : بربكم لا تجعلوني فُرجةً، ولكم عليَّ ثمنُ هذا المعروف !

قال الشيخ : وما ثمن هذا المعروف؟

قال : تعالوا معي!

ثم أخذ يثب أمامنا ونحن نتبعه حتى انحدر من فوق الصخرة، ثم استمر يثب حتى توسَّط الوادي، ثم انحرف إلى اليمين حتى بلغ طريقًا ضيقًا بين جبلين؛ ثم استأنف الوثب حتى بلغ مغارةً أخرى غير المغارة التي تركنا فيها زميلينا؛ ولكننا مع ذلك لم نتردد، ودخلنا . .

وكانت المفاجأة التي تنتظرنا في داخل المغارة أعظم مما كنت أنتظر . . .

ليس من حق الإنسان أن ييأس من رحمة الله في لحظة من لحظات عمره، فإن رحمة الله أعظم مما ينتظر أوسعُ الناس أملًا وأقواهم إيمانًا ...

إن الله الذي يشق الفجر المنير في ظلمات الليل الدامس، أعظمُ قدرةً مما يتخيَّلُ كلُّ متخيِّل، وقد آمنتُ بقدرته، وبرحمته، منذ خطوتُ أول خطوة في داخل تلك المغارة، فرأيت، وماذا رأيت ؟

رأيت إنسانًا من الناس لم أكن أظن أنني سأراه، لا في هذا المكان ولا في مكان سواه . . .

رأيت أبى شهبندر !

رأيته حيًّا، سليمًا معافى، وكنت أظن النسانيس أكلته وبعثرت عظامه، وعرفتُه منذ وقعتْ عليه عيناي؛ ورآني فلم يعرفني!

إما أنا فعرفته لأنى قابلته منذ سنوات، في جزيرة مجهولة كهذه الجزيرة، ولكنه فارقني قبل أن أعرف أنه أبي، وقبل أن يعرف إنني ولده؛ فلما قرأتُ بعد فراقه ما خلَّف من أوراق مكتوبة، عرفت أنه أبي، فادَّخَرْتُ صورته في ذاكرتي .

وأما هو فلم يعرفني لأنه يوم فارقني لم يكن يعرف أنني ولده؛ بل لم يكن يظن أن له ولداً؛ فانمحت صورتي من ذاكرته منذ فارقني. . .

ولما رأيته ماثلًا بين يدي بصورته وهيبته وتمام عافيته، ارتميت على صدره وأنا أقول له : أبي! شهبندر! الحمد الله على سلامتك يا أبي!

وكانت فرحتي في تلك اللحظة أقوى من قلبي، فغبتُ عن الدنيا وفقدت رشدي؛ فلما أفقت بعد لحظات رأيتني راقدًا على الأرض أمام المغارة، ورأسي على فخذه، ويده تعبث بشعري، والشيخ جالس بين يديه يحدثه، والنسناس الحيُّ واقف على بُعد ينظر إلينا . . .

ورفعتُ رأسي عن فخذه واستويت جالسًا بين يديه، ثم طوَّقته بذارعي، فجذبني الشيخ إليه وهو يقول لي: اجلس هادئًا واسمع يا سندباد !

فأرخيتُ ذارعيَّ لأجلس وأسمع؛ ولكن ذراعيْ أبي ظلَّتا تحيطان بي وكان في عينيه دموع، وكانت دموع مثلها تتحدر على خدي . . .

ثم أطلقني أبي من بين ذراعيه، ورفع يده إلى وجهه يجفف دموعه، واسترسل الشيخ يقص قصةً كان قد بدأها قبل أن أفيق . . .

وكان الشيخ يعرف بعض قصتي، من طول صحبتي له، فأخذ يقصها على أبي؛ وكان يعرف قصة أبى ويخفيها عني؛ فبدأ يقصها عليّ . . .

ولما فرغ الشيخ من قصتي إلى أبي، ومن قصة أبي إليَّ، بدأ أبي يتحدث؛ وكان حديثه عذبًا كأنه نسيم السَّحَر، هادئًا كأنه حلم ليلة سعيدة؛ وكنت أستمع إليه بكل جوارحي؛ كأن في كل عضو من أعضاء جسدي أُذنًا تسمع . . .